المشرق

حقوق اللغة العامّيّة بازاء اللغة الفصيحة

نظر انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

قام منذ عهد قريب صديقنا حضرة الخوري غصين احد اساتذة العربيّة الافاضل فتح امام الجمهور في كتابه الحديث «درسٌ ومطالعة» دعوى لم تخطر على بال احد حتى اليوم فعرضها على بساط الجدال وكتب هناك (ص ١٨٥—٢١٢) فصلاً مطوّلاً عنوانهُ «حياة اللغات وموتها» وشفع ذلك بملحق ايّد فيهِ رأيهُ بتاريخ للغات الاجنبيّة وفصول تعليميّة مُنبريًا في كل ذلك للدفاع عن اللغة الدارجة العامّيّة منتصرًا على قولهِ لحقوقها المهضومة . وحضرتهُ كما لا يخفى معروف بمقالاتهِ وخطبهِ نثرًا ونظمًا في اللغة الفصيحة وبتعليمهِ لها باتقان حتى لو شرد عنها احد تلامذتهِ وعدل الى ركاكة العوامّ ونَبْرهِ وخجَلهُ

فما أعظم ما كان اندهاشنا اذ رأيناهُ مؤخرًا يعدل عن سواء السبيل فأنذرنا بهبوط اللغة العربيّة الفصيحة وبتَبَوُّء اللغة الدارجة سدّة الشرف والسيادة بدلاً منها مستندًا في قولهِ الى ادلّة ظنّها متنعةً قاطعة وندّد في المحاضرة التي القاها في نادي اخويّة القديس يوسف الاروميّة بالذين يخالفون رأيهُ حتى كاد يعدّهم من اعداء العلم والوطن يؤثرون البقاء على العتيق والقديم في عصر يتسابق فيهِ الناس الى الجديد . ففضّلنا إحالتهُ الى مثل للعامّة اصحابهِ «احفظ عتيقك . جديدك ما بيبقى لك» او بالحري يتذكرنا قول القديس بولس الرسول الى اهل غلطية : «اني لمتعجب كيف تتنقّلون في

الرأي هكذا سريعاً . . كنتم تسيرون سيراً حسناً فما الذي عاقكم» ٠٠ هـا قد مرَّ على حضرته نحو ثلثين سنة يخدم اللغة العربيَّة الفصيحة لا يبالي باللغة العاميَّة وهو اليوم يدَّعي أنَّنا ظلمنا هذه اللغة فاحتجَّ على ظلمنا لها وأتانا شاكي السلاح ليتصدَّى لكل من لا يرى رأيهُ وكأنَّنا حاولنا تخطئة العامَّة على ملازمتهم لهجتهم واضطرارناهم الى تعلُّم اللغة الفصيحة

فبعد ما سرَّحنا النظر في كتابات حضرته للدفاع عن رأيهِ احببنا ان نخصَّ هذه المقالة بتعريف حقوق اللغة العاميَّة بازاء اللغة الفصيحة فنثبت ما لكلتيهما من المزايا او الخواصّ مع بيان حدودهما الفاصلة

١ اللغة العاميَّة ومزاياها وحدودها

واوَّل ما يجب قولهُ لحضرته أنَّنا لم نجهل حقوق اللغة العاميَّة ولا نحاول اضطرار الشعب على ترك لهجته العاميَّة في كل معاملاته لا بل مدحنا مرارًا الذين وضعوا بعض التآليف في اللغة العاميَّة ليتراءى فيها من الطلاوة والحلاوة في بعض الاحوال فقد ذكرنا منشىء مجلَّة ابي الهول الاديب شكري الخوري في سان باولو البرازيل لمَّا قرَّظنا كتبهُ المختلفة ولاسيما «التحفة العاميَّة» (المشرق ٥ [١٩٠٢]: ٦٢١) و«طولة العمر في حديث ابو يوسف وغر» (٨[١٩٠٥]: ١٨٩) و «رواية يا حسرتي عليك يا زعيتر» ومما قلناهُ في وصف تلك المطبوعات (٥ : ٦٢١)

«يأنف أغلب الكتبة من استعمال اللغة العاميَّة لنشر افكارهم وترويج مقاصدهم على انَّ لهجة العوام في بعض الاحيان اقرب الى نوال المرغوب واقوى نيلًا في القلوب فانَّ الادباء يجدون فيها تفكهة الارواح امَّا الجمهور فيرى صورة حياتهِ اليوميَّة وكلامهِ المطروق وامثالهِ المتادة فتؤثر فيهِ اقوال الكاتب ومضامين تحريراتهِ»

وما قلناهُ عن مطبوعات شكري افندي الخوري قلناهُ ايضاً في فنون المغنِّي ومنظومات القوَّالين كوصفنا لكتاب شمس المغنِّي الفريدة في المطبوعات الجديدة للقوَّال الشهير خليل سمعان الفغالي (المشرق ٥ [١٩٠٢]: ٩٥٨ ثم ١٠ [١٩٠٧]: ٩٥٥) وقد نقلنا من بعض هذه الكتب امثلةً «دالَّة على تفنُّن اصحابها بالمواضيع وحسن وصفهم للعادات بذوق سليم ودقَّة نظر وكلّ ذلك باللهجة الشائعة في لبنان فيجد

القارىء في كلّ سطر منها مرآة حيّة لاحوال اهل الجبل في كلّ اطوار حياتهم» (٨ [١٩٠٥]: ١٨٩—١٩٠)

وكم نشرنا ايضاً في مجلّتنا من مدائح وقصدان واقاويل عامّيّة شتّى لنبيّن لقرّائنا الكرام ما تحتويه اللغة العاميّة من التخيّلات الحسنة والتعابير المبتكرة والحكم والامثال المكوّنة بحلّة لهجة الشعب فنشرنا من (المدائح) مديح القديسة بربارة (المشرق ١٢ [١٩٠٩]: ٩٥٦) ومديحة القديس جرجس (٦[١٩٠٣]: ٣٨٩و٥٢٦) ومن (الحكم) اقوال الغنّالي في الغنى بحبّ الله وفي دحض الطبيعيّين (١٢: ٦٣٣) ومن (الاجتماعيّات) زجليّات وقرّاديّات مقولة في تقبيح الماسونيّة (١٤[١٩١١]: ٦٨٧—٦٩٢ و ١٦: ٦٥٦) ومن (الاوصاف) زجليّة الاديب الياس مسابكي في مجلس بلديّة دمشق (١٨[١٩٢٠]: ٦٧١—٦٧٥) وزجلية أخرى نشرها الكاتب المتفنّن عيسى اسكندر المعلوف في وصف الغلاء والجوع منذ مائة وثلثين سنة (١٨: ٣٣٨—٣٤٨) ومناحة جبرائيل القلاعي على رفيقه الاب يوحنا الفريق (١٨: ٢٥٠—٢٥٦) ومنها موشّح عين سير (٨: ١٣٩—١٤١) ومن (الامثال) امثال العوام في الشهور وفصول العام للشيخ انطون افندي جميّل (٨: ٦٦٤و٦٨٧و٨٦٥) وامثال العامّة في بغداد ليوسف افندي غنيمه (٩: ٢٩٧) وامثال عكّار للاب سليمان غانم اليسوعي (٩: ٥٥٥) وامثال حلب للمرحوم القس توما ايوب (١٠ ٨٢٧و٨٧٤و٩٢٥) . ومن (التاريخيّات) زجلية على فتح المسلمين لطرابلس (١٤: ٤٣٣) وزجلية في تلامذة المدرسة المارونيّة في رومية (٢٠: ٧٤٤) ومن (الفكاهيّات) قصيد ابو الركب لاحدى السيّدات (٤: ١٠٠٥) وزجليّة ضيف الليل (البرغوث) في كتاب علم الادب (الجزء الاوّل (٤٢٧—٤٢٩) . ومن (الاخلاق) محاورة الكريم والبخيل لخليل سمعان الغنالي في مجموع اطرب الشعر واطيب النثر (١: ٣٩٢—٣٩٧) وغير ذلك ممّا يدلّ على اعتبارنا اللغة العاميّة في بعض المواقع . ولا يُنكر ان في درسها بعض الفوائد

﴿الفائدة الاولى﴾ انّ اللغة العاميّة بهجتها ولفظها وتعابيرها وتصوّراتها تُطلع نوعاً على اخلاق المتكلّمين بها فبمجرّد استماعها يحكم السامع على بعض طباع اصحابها من خشونة اولين، من ذلاقة لسان او وحشيّة ، من سكنى سهول ومدن (متمدّنين) او جبال وقرى (فلّاحين)

﴿ الفائدة الثانية ﴾ انها تبيّن شيئاً من عنصر المتكلّمين بها ومخالطتهم للاجانب فانّ في لغة لبنان مثلاً بقايا كثيرة من لغتهم السريانيّة القديمة كما اثبت ذلك الاب ديوط بطرس حبيقة والمسيو ميشال فتّالي في تآليفهما . وفي عربيّة اهل ما بين النهرين الفاظ كثيرة كرديّة وتركيّة لمخالطتهم اكراد بلادهم واتراكها . وكذلك في لغة العراق آثار فارسيّة عديدة لامتزاجهم هناك باهل فارس

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ انّ في لغة العوام مفرداتٍ شتّى عربيّةً او اعجميّة دخيلة لا يعرفها غيرهم وهي الفاظ يستعملونها بينهم اصطلحوا عليها للدلالة على مبيعاتهم وآلاتهم وادوات اشغالهم كالبنّائين والحدّادين والنجّارين والطباخين والتجار والبحريين لا ذكر لها في المعاجم وكتب اللغة ويحسن الاستفادة منها لوصف الصنائع والحِرَف

ولا بأس لو اراد الكاتب ان يمثّل في كتابته شيئاً من اوصاف العامّة ان يجعل في افواههم لهجتهم الخاصّة كما لو صوّر مثلاً فلّاحاً او مكاريّاً او ولداً من العامّة . ونذكر انّ اوّل من صنع ذلك هو احد الآباء اليسوعيين من رسالتنا السوريّة الاب يوسف دمياني في تمثيليه البشير الاول ١٨٦٩١—١٨٧٣ م التي طبعت سواهما في سوريّة تكتب باللغة العاميّة بين معلّم ومكاري فكان اسم يتكلّم بلغة فصيحة والمكاري يجيبه بلهجته العاميّة . فشاع اسم المكاري وكان اصله من غزير فتفكّه الناس بلهجته حتى أنف ممّا لقيهُ من هزلهم واتى الاب متشكّياً فقال لهُ : « يا ابونا جرّستنا . دخيلك لا تحطش اسمي في حكياتك »

ولا نتعرّض الروائيّ ان اراد يكتب روايةً هزليّة لو يمثّل على المراسح بعضاً من العامّة ان يفضّل لغتهم على اللغة الفصيحة لغاية صالحة يقصدها . وكذا يقال عن بعض جرائد يحرّرها اصحابها تفكهةً للطبقة السفلى من القوم

بل لا نلوم مرشد الشعب وخطيبهم ومعلّمهم ان يتقرّب اليهم بلغة اقرب من لهجتهم ان استصوب ذلك مع حفظ كرامة الوعظ والتعليم

وقد كتبنا قبل سنتين في المشرق (٢٠ [١٩٢٢] : ١٠٤٣—١٠٥١) مقالةً في الوسائل لترقية اللغة العربيّة . ومن جملة تلك الوسائل ذكرنا ثمتاً « العامّي الحديث » وهو ذلك ما كتبناهُ بحرفه :

« العامّي ما ينطق به العامّة وشاع على لسانهم دون الادباء . فانّ للعامّة لغةً خاصّةً لا تخلو في

كثير من منطوقها من وثاقة وسلاسة وحسن ذوق . وليس العامي حديث الوضع في البريئة وانما جرى عليه العرب في بدوهم وحضرهم منذ القدم حتى في ازمان الجاهلية وبعد الاسلام في كل اطواره الى يومنا »

ثم حرضنا المجمع العلمي العام الذي أشرنا الى انشائه « ان لا يهمل هذا الفرع من اللغة الدارجة فان في معرفتها منافع جمة » ثم اردفنا قائلين :

« وتغني عن البيان انه من الواجب تمحيص العامي قبل انتقاء مفرداته وتراكيبه وادراجها في اللغة الرسمية وذلك ايضاً من مهمات المجمع العلمي الذي حكمته يرجع كل ما يتوط باللغة وتحسينها وتوسيع نطاقها . ولا بأس ان يستعين الادباء في تآليفهم ومقالاتهم التي ينشرونها في الجرائد والمجلات فان باحتكاك الآراء يسطع النور ويلوح الصواب »

وكان سبقنا الى هذا الموضوع المستشرق الشهير المرحوم مرتين هرتمان فنشر في السنة الاولى من المشرق ١٨٩٨ (ص ٧٩٠ و١١٠١) مقالة بيّن فيها اهمية جمع خواص الكلام الدارج » . فيلوح من كل ما سبق اننا لسنا اعداء العلم ولا اعداء الوطن واننا لعارفون مقام اللهجة العامية

الا ان حضرة الاب صالحاني اذ تصدى لمقالة الخوري مارون غضن لم ينكر شيئاً مما سبق وانما رأى في فصوله المطبوعة في كتابه دروس ومطالعة ثم رأينا نحن ايضاً في ملحقه حقوق اللغة العامية ما يمس شرف ومقام اللغة الفصيحة التي عليها وحدها المعوّل في التعليم والكتابة والمواصلات الرسمية . ولعل حضرة الخوري لم ينو للغة الفصيحة شراً ولين احتجاجنا على نيته بل على ظاهر كلامه

فان الفصل الذي عقده تحت عنوان « حياة اللغات وموتها » لا يظهر منه كما زعم المنشئ « لسعد نخله » في جريدة الاقبال انه يريد به تعزيز اللغة العامية فقط بل قصد ان يثبت ان اللغة العربية الفصيحة آئلة الى الموت وان اللغة العامية مدعوة الى التربع مكانها . وقد شعر حضرته بما سيثير كلامه في العقلاء من الهيجان ولذلك تراه يحترس لنفسه بذكر كلمة توميستكل : « اضرب بشرط ان تصغي لي » (ص ١٨٥—١٨٦) فقد أصغينا ولسنا نريد ان نضرب بل ان نبيّن الحقيقة بالاعتدال

فما هو يا تُرى معنى ابحاثه في ان كل لغة سائرة الى الفناء وفي ان لا بُدّ لكل لغة عامية من ان تتحوّل الى لغة فصيحة وفي ضربه لامثال اللغات القديمة التي بعد

عزّها ماتت وقامت بدلًا منها لغاتٌ قوميّة. أليس كلّ ذلك تمهيدًا لزعمه انّ اللغة العربيّة الفصيحة على مثال تلك اللغات سائرة الى الفناء وهو يُنذرها بموتها ويتكهّن بقيامة اللغة العاميّة مكانها عاجلًا او آجلًا

ومما يؤخذ من كلام حضرته الذي يكرّره مرارًا في فصوله انّ اللغة العاميّة ستصير باهتمامه واهتمام امثاله من نوابغ الكتبة لغةً فصيحة. فكيف تكون فصيحةً يا رعاك الله إلّا بان تقتل اللغة العربية التي منذ ١٤٠٠ سنة سادت في عالم العلم إلّا بان تقلبها ظهرًا لبطن فتُبطل كل اعرابها وتلغي اكبر قسم من صرفها ونحوها ويكفي للبرهان على قولنا ان نثبت هنا المثل الاوّل الذي ضربه في ملحقه (ص٥١) قال :

إمّي

لا تعتبروا ان الزمان يبقدر دايمًا يجي الحسال، ولا البكا والهموم يبقدرو دايمًا يزوحولو تضارتو: عيدي إمّي عمرا ستين بنه، وكل ما نظرت لَيها وتطلّعت فيها، شوفا عسأل تزيد حمان منظرها — إذا التفتت، او ضحكت، او بكيت، بتأثير بنتي ألطف تأثير. آخ! إن ربّي سمّرلي لكنت بقدّ كل حياتي واني إشتغل بسورتها! وقديش يستحلي سرورها . . .

نشدتُك الله ايها القارئ اللبيب أترى ان هذه الرطانة ستُصبح يوماً اللغة الفصيحة التي على قول كاتبنا ستخلف اللغة الكتابيّة؟ وان ثبت ملكُها ألا تكون القاضية عليها وهو اليوم يزعم انّه لا يُريد لها أذًى؟. فانعم في هذه القطعة ما تعلّمناهُ من تصريف واعراب وتركيب جمل فضلًا عمّا فيها من اغلاط الإملاء. أهذه تكون فصاحة لغتنا في المستقبل ان نُقدّم الباء على المضارع ونبدل النون من التنوين ونلغي علامة الفاعل والمفعول والمجرور وان نلاشي الضمائر ونقلب الحروف كما تخطر على بال العامّة فنلفظ الثاء تارةً تاء وتارة سيناً ونقلب اللام راء. ونخلط كلّ الحركات والضوابط بعضها ببعض؟

فيا لله من لغة معدّة للفصاحة ومرشّحة للإمامة بل يا لها من متصلة جزّار لو صار اليها الحكم فعلى لغتنا السلام. فعبثاً يقول اذن حضرة الكاتب انّهُ يصون حرمة لغتنا الشريفة وهو ينقض ركنها ويثلّ عرشها. ولم يُفِدْه تنصُّل محاميه المزعوم اسعد نخله في الإقبال ذرّةً

امّا القواعد التي نشرها في ملحقهِ المذكور في ستّ صفحات (٣٧–٤٢) وهو يزعم «انهُ لم يسبقهُ احدٌ بعدُ الى وضع قواعد الكتابة لأُمّة العامّيّة السوريّة» فانَّ كثيرين سبقوهُ اليها واثبتوها مفصّلةً في اصولهم الفراماطيقيّة فانَّ في مكتبتنا الشرقيّة تاليف في قواعد لغات العامّة لكلّ انحاء الشرق لبيروت والشام وفلسطين ومصر والعراق وجزيرة العرب والجزائر ومراكش. فادّعاؤه السبقيّة يدلّ على جهلهِ بما شاع وذاع باقلام ماتسون (Em. Mattsson) وماكس لوهر (Dr Max Löhr) وفاهرمند (Wahrmund) وليتمان (Enno Littmann) وماسينيون (L. Massignon) ولندبرغ (C^te Landberg) وسوتسين (Socin) ومَيسنر (Meissner) وفولرس (K. Vollers) وباور (L. Bauer) ودلفين (G. Delphin) وذكر منها شيئاً في مطبعتنا الآباء بلين (Blin) وبلو (Belot) ولويس روتزفال والمرحوم يوسف حرفوش في مقدّمات كتابهِ الفرنسوي (Le Drogman arabe) وغيرهم. فلم يأتِ اذن حضرتهُ امراً إذًا بل ولا نقطةً من بحر. وفي قواعده ما هو أحرى بان يُدعى «عدم القواعد» فخُذ مثلاً قولهُ في الحروف «انَّ الالف تكتب دائماً بصورة الالف ولو كانت منقلبة عن ياء» ويضرب لذلك مثل «الغنى» ولم يُفدنا ايَّ «غنًى» أراد أقصد الغنى اي الثروة ام قصد «الغناء» ونسي ان يعلمنا كيف نفرز الواحد عن الآخر. وكذا قل عن «إذن» أراد «المسمع» وكثيرون يقول «ادن» بالدال او اراد «إذَنْ» حرف الجواب؟

وفي المثل السابق «انقلبت اللام راء (يا رَيت)» ونسي ان ينبّهنا في قواعدهِ على ذلك. وكم وكم من الحروف تتشوّه وتتبدّل وهو لم يذكر منها شيئاً

وقس عليهِ بقيّة الفصول وقواعدها فلو اردنا انتقادها لوجدنا في كلّ منها شذوذًا او مطعناً

وقد قصر حضرتهُ الكلام في كتابهِ وملحقهِ على لغة سوريّة وفي قولهِ هذا نظر فانَّ قواعدهُ ولو ثبتت لما صحّت الّا على لغة لبنان (مع اختلافاتها من قرية الى اخرى) فهيهات ان تُطلق على لغة حلب وحمص وحماة والشام والقدس ومصر والعراق والمغرب فايّ لغة من هذه اللغات العامّيّة يريد لها الحكم. فكيف لم يفطن حضرتهُ الى ذلك فيثير روح الشقاق بين تلك البلاد أفيظنّ انَّ كلًّا منها ستغيّر لهجتها بلغة فصيحة

خاصّة بها فيحصل لنا عشر لغات فصيحة مستقلّة نحتاج الى اتقانها كما نتعلّم اليوم بدلاً من اللاتينيّة اللغات المشتقّة منها كالفرنسويّة والايطاليّة والاسبانيّة والبورتغاليّة والبروفنسالية الخ . ولو ذكرنا هنا امثلة من لهجات كل قطر لتأكّد ما بينها من الاختلاف الذي ينفي كلّ واحدة . فليراجع مثلاً ما اثبتهُ حضرة الخوري بولس سلمان من اقوال الساكنين في شرقي الاردن (المشرق ١٧ [١٩١٤] ٢٦٣ و ٣٣٣) فكم تختلف عن لهجة لبنان . ودونك مثالاً من عربيّة الجزائر (Delphin, p. 60) :

« الودواد والسوّامة : واحد النهار هما زوج متاع الناس خلطوا للسوق باش يشروا عودة ' صابوا رجل ودواد يبيع في عودة ساروموها منهُ قالوا لهُ اشخال تسوى العودة قال لهم أعطاوا خمْ خمْ خمْ . قال الواحد لصاحبوا ايّا نمشوا ما يجي يوصل للعين غير اذا احنا كنا شريناها عودة اخرى وشاوا في حالهم »

وهذا مثال من عربيّة العراق في العدد الاخير من ملحق المجلّة الاسيويّة الالمانية (ص ٨٨) ولا يخفى انّ لفظهم للحروف يختلف عن لفظنا :

« أريد ارتاص فاطري ' فاني عن حيلا يا رشيد لازم نصير تة نيما بين العبايا والبيد ازين يا مدموع الانع ' يا تحق ارفوف اغطا ' اله نه اخر حزنه بطم يضرب بيها وسطاه »

وهذا مثال عربيّة نجد (Socin: Diwan aus Central Arabien, p. 239)

« يا ابجرنا يا اللي تعرف الشاره ' اثر الحنين بالودك ما صار ' لو صار بيدي واحد هوكاره ' بدعيه مثل ازيد راعي الكار ' يفرح اذا جاه ليله مطاره ' تظلم عليه العين بيت النار ' اذا ملأ الطاوه وفاح كناره ' ولا وطى عنده فهو مشكاره ' الآنجى اذا مات ما له حاره ' بالآخره يحشر مع الكفّار

وهذا مثال من لغة الحلبيّين في اعراسهم ذكرتهُ مجلّة المسرّة في عددها الاخير (شباط ١٩٢٥ ص ٨٢) وسعى في حلّ لغزه حضرة القس جبرائيل مخّاش :

وْلَكْ افْ يـاوي ' دُسْ دُسْ ' بروكْ مْنيخ ' ها بيا ها

فهذه هي بابل اللهجات فان شاء حضرة الخوري مارون غصن تعزيزها ونشرها كما يريد تعزيز اللهجة العامّية في لبنان أفيبقى اثر للّغة الفصيحة ؟ اتلبس هو اذن عاملاً على التفريق بين العناصر بدلاً من تأليف القلوب وجمعها؟

٢ اللغة العربية الفصيحة

هي لغتنا العربيّة الشريفة التي وحدها يحقّ لها ان تفتخر بسابقها وحاضرها ولاحقها. اما سابقها فيشهد لهُ عدد لا يُحصى من الكتبة والشعراء والادباء الذين تتواصل سلسلتهم غير المنفصمة منذ عهد الجاهليّة في القرن السادس للمسيح الى أيامنا. ولا نرى في كلّ هذه الاجيال اثرًا مذكورًا للغة العامية مع شيوعها بين جمهور الشعب في انحاء البلاد

واما حاضرها فهذه المدارس التي يضيق الاحصاء عن تعدادها والتآليف والجرائد والمطابع والجمعيّات الادبيّة وكلُّها تتناصر في درس العربيّة الفصيحة ونشرها. بينما لا ترى للغة العاميّة غير صحيفات قليلة لا تخرج من دوائر ضيّقة للعامّة في بعض المواقف الهزليّة او المقامات الأخلاقيّة. فاين مطبوعاتها الدينيّة والعلميّة والفنيّة فكلّها لا أثر لها ولا عين

واما مستقبلها فالأمل معقود بانهُ يفوق على ماضيها وحاضرها مع ما نرى كل يوم من اتساع نطاق الآداب وتوفّر عدد الكتبة وازدياد الوسائط للدرس والتأليف وتعدُّد الجمعيّات العلميّة والمطابع فلا غرو انَّ كل هذه الوسائل تنذر بمستقبل بهيّ سيراهُ من بعدنا اخلافنا ونستبشر بهِ منذ يومنا

وكأني بمعترض يقول: هل بقيت اللغة العربيّة الفصيحة على حالها منذ ظهورها؟ ألم يعترها تغيير كبقيّة اللغات؟ نجيب على ذلك انَّ اللغة العربيّة الفصيحة ليست لغة ميتة وهي على مثال اللغات الحيّة تنمو وتتّسع وتنال من احوال البلاد وعناصر الشعوب التي تتكلّم بها قواعدَ تتّصل بها وتتكيّف بكيفيّتها وتُصبح معها جسماً واحداً. وهذا ما تحقّقهُ اللغويّون في كل اطوار عمرها حتى في زمن الجاهليّة فدخلت فيها الفاظ يونانيّة ولاتينيّة وحبشيّة وسريانيّة وعبرانيّة وفارسيّة وتركيّة استعملها الكتبة في تآليفهم بل لا يخلو منها القرآن كما يقرُّ بهِ مفسّروهُ. وكذا حدث في بعض قواعدها الصرفيّة والنحويّة يشهد عليها ما دار من الجدال بين البصريين والكوفيين وغيرهم

بيد انَّ هذه الالفاظ الدخيلة والتغييرات اللغويّة لم تمسّ جوهر اللغة ولم تؤثر في اصولها والدليل عليهِ ما نُشر من التآليف القديمة والدواوين الراقية الى اوائل الاسلام لا بل الى زمن الجاهليّة فانّنا نقرأها وندرسها ونفكّ اسرارها بما لدينا من المعاجم

وكتب النحو . والماضي يضمن لنا المستقبل . وفي عهدنا وسائط اوسع واوفر لحفظ سلامة اللغة من الزمن القديم لكثرة الكتب المدرسيَّة والمعلمين المجتهدين في تعليمها

وقد وقفت هذه اللغة بازاء اللهجات العاميَّة وقفةَ الحكيم العاقل لم تأنف من ان تستعير منها بعض ما رأت فيه صلاحيةً للدلالة على المخترعات الحديثة وعلى المسميات الجديدة وذلك الدخيل الذي يُغنيها دون ان يفسدها ولا نأبى ان تحرِّر اللغة الفصيحة فيتَّفق الأدباء على تسهيل بعض قواعدها المرتبكة كما ارتأى صديقنا الدكتور امين الجميّل في مقالته (المشرق ٢٠[١٩٢٢]: ٤٩٥) «الرأي العام في عثرات الاقلام» . اما اذا حاول العامة ان ينتهكوا حرمتها برطانتهم فتسدُّ بابها دونهم وتسمهم بسمة العار اللهم إلَّا بعض الزجليَّات والاغاني وما اشبهها تجعل لها حدودًا لا تتعدَّاها

وان عارضنا اللهجات العاميَّة باللغة الفصيحة وجدنا انَّ تلك اللهجات هي التي تترقَّى الى اللغة الفصيحة وتتقرَّب منها مع الزمان فتنال من فضلها اكثر مما تكتسب اللغة الفصيحة من لغات العموم . فهذه مطبوعات عديدة كثيرة الدواوين والقصائد من [illegible] مع كونها عاميَّة اللهجة اقرب كثيرًا من اللغة الفصيحة مما نجده من جميع ما قيل عن [illegible] في القرون السابقة كما ترى في زجليَّات ابن القلاعي وآثار بعض اهل الشعب في تلك الازمنة . ولدينا شاهد على قولنا في الامثلة العاميَّة التي اختارها حضرة الاب مارون غصن يكفي لها اصلاح قليل لتصبح كلاماً فصيحاً . دونك مثلهُ السابق مع اصلاحه

الرواية العاميَّة	اصلاحها
إمي	أمي
لا تحسبو ان الزمان بيقدر دائمن يجي الجمال ، ولا البكا والهموم بيقدرو دائمن يروّحولو نضارتو : هيدي إمي عمرا ستين سنة وكل ما نظرت لَيها وتطلّعت فيها ، بشوفا عمال تزيد جمال بنظري — اذا التفتت او ضحكت ، او حكيت بتأثير بقلبي ألطف تأثير — آخ بارتني مصوّر لكنت بتعمد كل حياتي وانا اشتغل بصورتا	لا تحسبوا ان الزمان يقدر دائمًا يجي الجمال ، ولا البكاء والهموم تقدر دائمًا تروّح لهُ نضارتهُ : هذه أمي عمرها ستون سنة وكلّ ما نظرتُ اليها وتطلّعتُ فيها اشوفها تزيد جمالًا بنظري — اذا التفتت او ضحكت او حكت تؤثر في قلبي ألطف تأثير — آه يا ليتني مصوّرًا لكنتُ أتعبد كلّ حياتي وانا اشتغل بصورتها

فيا لله أكان يلزم كلّ هذا الصراخ والجدال للمدافعة عن هذه اللغة العاميّة ورفع شأنها وهي لا تخالف اللغة الفصيحة إلّا ببعض ما يفسدهُ لسان العامّة. أما كان احرى بالابمارون ان يقول لهم: «انّ اللغة الفصيحة اقرب اليكم من قاب قوسين والدليل انكم لا تجدون فرقاً كبيراً بين الروايتين المذكورتين سواء عُرضت عليكم باللغة الدارجة او باللغة الفصيحة. وهاكم تسمعون كلّ يوم في الكنيسة قراءة الانجيل باللغة الفصيحة ولا احد منكم يطلب ان يُقرأ باللغة العامية وتتلون كل صلواتكم باللغة الفصيحة ولم يخطر على بالكم استبدالها باللغة الدارجة واذا وجّه اليكم رؤساؤكم الاجلّاء مناشيرهم كتبوها باللغة الفصيحة وكلكم يدرك معانيها. وكم تقرأون من الكتب الفصيحة كألف ليلة وليلة وقصّة عنتر فتفهمونها دون صعوبة وكذلك الجرائد لا تفوتكم اخبارُها وكلها فصيحة. امّا الكتب اللغويّة العويصة كالحريري والشعر القديم والكتابات المتصنعة فهذه لم تُكتب إلّا للمتبحّرين في اللغة فلاحاجة لكم اليها. فاثبتوا على لهجتكم في المعاملات وإيّاكم ان تتعرّضوا لمن يكتب او يتكلّم باللغة الفصيحة فلا بأس بعملهِ فانهُ يستفيد ويفيدكم». فلو عرض حضرتهُ المسألة على هذا المنوال لوَفى الغرَض ولم يستهدف لانتقاد احد من الادباء فجار عن الطريق وتعدّى الخطة المثلى فصوّب اليهِ المنتقدون سهامهم فأصابت المرمى

ردود

حضرة الخوري مارون غصن

على البشير والمشرق

قد ظهرت في هذه الأيّام الاخيرة لحضرة الخوري مارون غصن في الإقبال اوّلًا باسم المسمّى اسعد نخله (؟) ثم باسمه صريحاً في الاحوال ردودٌ على ما كتبتهُ جريدة البشير في وصف كتابهِ المعنون بدرس ومطالعة وما نشرتهُ مجلّة المشرق تحت عنوان «خطر جسيم او اللغة العاميّة» فاطّلعنا عليها واذا فيها من التسيبات والتُّهم التي